معرفة التاجر الصدوق الأمين من خلال تأمّلات في سورة المطفِّفين

2023-05-26

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، أحلَّ الحلالَ وبيَّنَ طريقَه، وبالطيّباتِ أمرَ، وحرَّمَ الحرامَ وأوضحَ سبيلَه، وعن الخبائثِ زَجرَ، فسبحانه من إله تَعاظمَ ملكوتُه فاقتدرَ، وتَعالى جبروتُه فقهرَ، رفعَ وخفضَ وأعزَّ ونصرَ، وهو العليمُ بما بَطنَ وظهرَ، ونحمدُه سبحانَه ونشكرُه، ونتوبُ إليه وأستغفرُه، أَغنانا بحلالِه عن حَرامِه، وكَفانا بفضلَه عَمَّنْ سِواه، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، أمرَ بالقِسْطِ والإنصاف، ونَهى عن التطفيفِ والإجحاف، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وصفيُّهُ مِنْ خلقهِ وخليلُه، أرحمُ الخلقِ بالخلقِ، وأنصحُ الناسِ للناسِ، وأشفقُ العبادِ بالعبادِ، أرسلهُ اللهُ بالحنيفيَّةِ السمحاء والطريقةِ السواء، كانَ أكثرَ النّاسِ عدلاً وأحرصَهُم قِسْطاً،

يا أمّة المصطفى الهادي إلى الرَّشَدِ * والمُرتَجين ثوابَ الواحِدِ الصّمَدِ
إن شئتُمُ أنْ تنالوا أعظمَ المَدَدِ * من الإله وتَنجوا في شفاعتِهِ
صلّوا على المصطفى يا أهلَ مِلّتِهِ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. سيّد العرب والعجم. وعلى آله ينابيع العلوم والحِكَم. وصحابته الطاهرين الخُلُق والشيّم. صلاة تفتح لنا بها أبواب الفضل والكرم. وتهطل بها علينا سحائب الخيرات والنِّعم. وتدفع بها عنّا هواجم البلايا والنِّقَم. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنَّ التجارةَ في الإسلامِ مباحةٌ غيرُ مَمنوعةٍ إذا كانتْ صفتُها ومعاملاتُها لا تتجاوزُ الحدودَ المتعارفَ عليها، وهي خيرٌ عميمٌ ورزقٌ وفير، فقدْ جاءَ فيما أُثِر عن النبي صلى الله عليه وسلم. روى ابن أبي الدنيا عن نعيم بن عبد الرحمن رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((تسعة أعشارِ الرزقِ في التجارة)). ولقدْ كانتْ حرفةَ بعضِ أنبياءِ اللهِ عليهمُ السلامُ. وهِيَ مِنْ أفضلِ الكَسب؛ ففي الحديث الذي

رواه البزّار وصحّحه الحاكم. عَنْ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم: ((سُئِلَ: أَيُّ الْكَسْبِ أَطْيَبُ؟ قَالَ: عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ))، وفي صحيح البخاري: ((أَنّ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ)). وجاءتِ السُنَّةُ كذلكَ مُبيِّنةً أنَّ احترافَ المهنةِ وإتقانَها والإلمامَ بجوانبِهَا يُكسِبُ مُحبَّةَ اللهِ تَعَالَى؛ فقد روى الطبراني عن النبي صلى الله عليه وسلمَ: ((إنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبدَ المُحترِف))، والتاجرُ الصدوقُ الأمينُ في تجارتِهِ الذي أحسنَ تعاطيَها. والتزمَ بأُطُرِهَا وأُسُسِها، وراقبَ اللهَ فيها بِنَفْسٍ وجِلَةٍ خاشية؛ يُباركُ اللهُ له في رِزقِه، ويُوَسِّعُ له في تِجارته، ويزيدُهُ مِنْ واسع فضلِه، ويحشرُه يومَ القيامةِ مع النبيّينَ والصّدّيقينَ والشهداءِ؛ كما جاءَ عنهُ صلى الله عليه وسلمَ. فقد روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((التاجرُ الصدوقُ الأمين مع النبيّينَ والصّدّيقينَ والشهداءِ))، وفي رواية أخرى: أخرج ابن ماجه والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((التاجرُ الأمين الصدوقُ المسلم مع الشهدا يوم القيامة)). أيّها المسلمون. إلا إنَّهُ في المقابلِ إذا انحرفَ التاجرُ بتجارتِهِ إلى ما فيهِ إضرارٌ بمصلحةِ المجتمع عموماً، ورضيَ لنفسهِ مقارفةَ المُعاملاتِ المُحرَّمةِ اللا إنسانيَّة، غيرَ عابئ بما تدعو إليهِ القِيَمُ والمُثُلُ الأخلاقيّةُ، مُتجاوزاً في ذلكَ حدودَ ما أنزلَ اللهُ، فإنَّهُ بذلكَ يكونُ قد ارتكبَ ظُلماً في حقِّ نفسهِ، واقترفَ جريمةً في حقِّ مجتمعِه، ولقدْ حكى القرآنُ الكريمُ حالَ المُطفِّفينَ منَ الأقوامِ السابقينَ بعدما انحرفُوا عنِ القسطِ في الكيلِ والوزنِ وبخسوا الناسَ أشياءهُم، كقومِ شعيب وغيرهم فأنزلَ اللهُ عليهم عقابَهُ الأليم في قولهِ تَعَالَى في سورة الشعرا: ((أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ، وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ، قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ، وَمَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ، فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ، فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ))، ونفى

رسولُ الله صلى الله عليه وسلمَ نسبتَهم إلى جماعةِ المؤمنينَ. حيثُ قالَ حينما مرّ على رجلٍ بائع يغشُّ في تجارتِه: ((مَنْ غشَّنَا فليسَ منّا))، فالتطفيفُ غِشٌ لصاحبِهِ مُذِلٌّ، بلَ سرقةٌ تجاريةٌ لا تَحِلُّ، فإنَّهُ وأمثالَهُ منَ المعاملاتِ المُنحرِفَةِ تَميلُ بمزاولِيهَا إلى سبيلِ الإثمِ والفشل، كما أنَّ المجتمعَ الآمنَ يظلُّ بوجودِهَا في ضَرَرٍ ووَجلٍ؛ نظراً لاستنزالِها النِّقَمَ مِنْ ربِّ النِعَم، في البيع والشراءِ على السواء، روى الحاكم وصحّحه والبيهقي عن أبي سباع قال: ((اشتريتُ ناقة من دار واثلة بن الأسقع رضي الله عنه فلمّا خرجتُ بها أدركني يجرّ إزاره. فقال: اشتريتَ؟ قلتُ: نعم، قال: أُبيّن لك ما فيها؟ قلتُ: وما فيها؟ إنها لسمينة ظاهرة الصحة، قال: أردتَ بها سفرا أو أردتَ لحما؟ قلتُ: أردتُ بها الحج، قال ارتجعها، فقال صاحبها: ما أردتَ إلى هذا أصلحك الله؟ تفسد عليّ، قال: إنّي سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يحلّ لأحد أن يبيع شيئا إلا بيّن ما فيه، ولا يحلّ لمن عَلِم ذلك إلا بيّنه))، وكذا رواه ابن ماجه باختصار القصة، إلا أنه قال عن واثلة: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((مَن باع عيبًا لم يبيّنه لم يزل في مقت الله، أو لم تزل الملائكة تلعنه))، وروى أحمد وابن ماجه والطبراني في الكبير والحاكم وقال صحيح على شرطهما. أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((المسلم أخو المسلم، ولا يحلّ لمسلم إذا باع من أخيه بيعًا فيه عيب أن لا يبيّنه)). أيّها المسلمون. إنَّ الإسلامَ في شموليَّتِهِ عقيدةٌ وسُلُوك، وهوَ في ذاتِ الأمرِ وَعْدٌ ووعيدٌ وترغيبٌ وترهيب، والمُتأمِّلُ في سورةِ المطففينَ. هذه السُورة الكريمة التي وَضَعَتْ للبيع والشراءِ أُسُساً عادلةً قَويمةً، يقولُ اللهُ عزَّ وجل: ((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)). وإنَّ المُتأمِّلَ المتدبِّرَ فيما تَضمّنَتْهُ هذهِ السورةُ القرآنيةُ العظيمةُ. يَجِدُ أنَّها تُصَوِّرُ جانباً سيِّئاً مِنَ الواقِع العمليّ الإقتصاديّ والإجتماعي، هذا الجانبُ تمثَّلَتْ معالمُهُ، وتجسَّدَتْ صُورتُهُ في ظاهرتَيْنِ ممقوتتَينِ ساقتْ صفتَهما السورةُ الكريمةُ في أوَّلِهَا وخِتامِهَا، مُشدِّدةً النكيرَ على أصحابِهما: إنهما ظاهرةُ التطفيفِ في الكيلِ والوزن، وظاهرةُ الإستهزاءِ والسخريةِ بالمؤمنين،

ففي بدايةِ سياقِ هذه السورةِ كما ترَوْنَ شدَّدَ اللهُ عزَّ وجل النكيرَ على المُطفِّفينَ. وهُم طبقةٌ منَ التجارِ يُمارِسُونَ سُلوكاً شاذّاً عنِ الفِطرةِ في تجارتِهم، فهُم كما وصفَهُم اللهُ عزَّ وجل: ((إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ))، ففي حالِ شرائِهم منَ الناسِ يتقاضَوْنَ لأنفسِهِم الكيلَ وافياً، وإنْ كانُوا بائعينَ يُنقِصُونَ في الكيلِ والوزن، فكانُوا على هذهِ الصورةِ يتصرّفونَ بلا رقيبٍ أخلاقيّ يَصدُّهم، وبهذا الأسلوبِ يتعاملونَ دونما رادع اجتماعيٍ يردعُهم، وكأنَّهم أمِنُوا العقابَ أو نَسوا يومَ الحساب، روى ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهما قال في سبب نزول السورة: ((لمَّا قَدِمَ النبيُ صلى الله عليه وسلمَ المدينةَ كانوا مِنْ أبخسِ الناسِ كيلاً، فأنزلَ اللهُ: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. فأحسنُوا الكيلَ بعدَ ذلك)). أيّها المسلمون. والمُتأمِّلُ في سورةِ المطففينَ يجدُ أيضاً أنَّها تُمَثِّلُ جانباً مُشرقاً آخَرَ مِنْ أساليبِ الإصلاحِ الفعَّالةِ، وأُسُسِ التربيةِ المُؤثِّرةِ في مواجهةِ واقع البيئةِ، وواقع النفسِ البشريَّة، فقدْ طالعتْنا هذهِ السورةُ الكريمةُ في وَسَطِهَا على مَشْهدَيْنِ لِفئتَيْنِ مُتضادّتَيْنِ منَ الناسِ هم: فِئةُ الفُجَّارِ، وفئةُ الأبرار، والآياتُ في هذا السياقُ القرآنيُّ العجيبُ تستعرضُ ما آلَ إليهِ حالُهُمَا نتيجةَ أعمالِهما. لِيتمَّ بذلكَ النَّسَقُ القرآنيُّ التربويُّ في أبهى صُوَرِهِ، وأوضحِ دلائلِه؛ فبَعدَ أنْ ذكرَ المولى عزَّ وجل المُطفِّفينَ وسُوءَ عملِهم، وإضرارَهم بالناسِ في تجارتِهم؛ خَوَّفَهُم بأليمِ عِقابِهِ، مُشعِراً أحاسيسَهم النفسيَّةَ، وكوامنَهُم الوجدانيَّة، مُنَبِّهاً إيَّاهُم بأنَّ عملَهم هذا سيُردِيهم إلى الفجورِ، وسيسلكُ بهم إلى سواءِ الجحيم، ويخالفُ بِهم عَنْ طريقِ الأبرارِ أهلِ النعيم؛ لأنَّ الجزاءَ حينها سيكونُ مِنْ جِنسِ العمل، وكما تُدينُ تُدان، ولا تَحصدُ أيُّها الزارعُ إلا ما زرعت، قال سبحانه: ((كَلا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ))، وقال أيضاً: ((كَلا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ)). ففي هذهِ الآياتِ إخبارٌ عن كتابَيْنِ هُما: كتابُ الشرِّ للفجارِ وهوَ في سجِّين، وكتابُ الخَيرِ للأبرارِ وهوَ في عِلِيّين، وكلٌ مِنهُمَا مليءٌ بأعمالِ أهله، رويَ عنهُ صلى الله عليه وسلمَ أنهُ قال: ((إنَّ الملائكةَ لَتَصعدُ بِعَملِ العَبدِ فيَستقلُّونه، فإذا انتهُوا بهِ إلى ما شاءَ اللهُ مِنْ سُلطانِهِ. أوحى إليهمْ إنكُمُ الحفظةُ على عبدي، وأنا الرقيبُ على ما في قلبهِ. وإنَّهُ أخلصَ عملَهُ. فاجعلوهُ في عِلِيّين. فقدْ غفرتُ له، وإنَّها لتصعدُ

بعملِ العبدِ فيُزَكُّونَهُ، فإذا انتهوا بهِ إلى ما شاء اللهُ. أوحى إليهم أنتمُ الحفظةُ على عبدي، وأنا الرقيبُ على ما في قلبهِ. وإنَّهُ لم يخلصْ لي عملَهُ. فاجعلوهُ في سجِّين))، فهذا الأسلوبُ البليغُ في الجمع بينَ الترغيبِ والترهيبِ يُعَدُّ القِمَّةُ بينَ أساليبِ التربيةِ وتَنْبِيهِ المشاعرِ الإنسانيَّةِ، وهو بالتالي وسيلةٌ ناجِعَةٌ في إصلاحِ الأنفسِ وإيقاظِ ضميرِ المجتمع. اللَّهُمَّ اكْفِنَا بِحَلالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنَا بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ، اللَّهُمَّ إنا نسألُك عَيْشاً قارّاً، ورِزقاً دارّاً، وعملاً بارّاً، اللَّهُم إنَّا نسْألُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَكَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضبِ وَالرِّضَا، وَنسْألُكَ الْقَصدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَنسْألُكَ نَعيماً لا يَنْفَدُ، وَقُرَّةَ عَيْنٍ لا تَنْقَطِعُ، وَنسْألُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَنسْألُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَنسْألُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَنسْألُكَ الشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةً، وَلا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.اهـ